كلمة رئيس مجمع اللغة العربية في حفل تأبين عضو المجمع
الأستاذ الدكتور محمد شفيق البيطار رحمه الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

معالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي الأستاذ الدكتور عبد المنعم عبد الحافظ المحترم

الأخوة الأفاضل الأخوات الفضليات

أيها الحفل التأبيني الكريم: سلام الله عليكم ورحمته بركاته، وبعدُ:

إذا كان الموت نهاية كل امرئ في هذه الحياة، فإن ثمة أناساً وإن غيبتهم المنون يظلون أحياء في النفوس والعقول والقلوب، وستظل الأجيال تذكر مآثرهم، إذا كانوا من الأنام الذين وصفهم رسول الله ^ في قوله: ﴿إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة، صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له﴾، وفقيدنا المجمعي الراحل الأستاذ الدكتور محمد شفيق البيطار رحمه الله ينطبق عليه مضمون هذا الحديث النبوي الشريف، فهو:

حيٌّ بذكراه لا موت ولا عدم يا من تخلده الأخلاق والقيمُ

كما يخلده العلم النافع الذي أنجزه، والتربية المثالية لأبنائه ذكوراً وإناثاً، وما كانوا إلا بررة، فالعمارات البشرية التي بناها وزوجته الفاضلة أحسن بناء، فكان بناؤها متوازناً ومتكاملاً، وكان الأبناء ذكوراً وإناثاً بررة يلهجون بالدعاء للأب رحمه الله، وللأم أطال الله عمرها.

وهكذا يضوع عبير المسك إن ذكر اسم فقيدنا نظراً لما كان يتحلى به من كفايات علمية وسجايا مناقبية وأخلاقية وإنسانية.

إنّ خسارة مجمع اللغة العربية بدمشق في فقدانه أحد أعلامه الأكفياء تعد خسارة يصعب تعويضها، فقد كان رحمه الله عالماً موهوباً اتسم بالذكاء والتفوق عبر مسيرة حياته الدراسية والجامعية والعملية والأكاديمية والمجمعية، فكان نتاجه متميزاً لا يقتصر تميزه على ميدان واحد، وإنما كان متعدد الأبعاد تدريساً وتأليفاً وإشرافاً على الرسائل الجامعية في الماجستير والدكتوراه، ومناقشة رسائل أُخر باعتباره عضواً في لجان التحكيم، إلى جانب تقويم البحوث العلمية، وإنجازه بحوثاً عدة نشرها في المجلات العلمية المحكمة، والقيام بالأعمال الإدارية، وتحقيق دواوين شعرية، ومراجعتها ودراستها، والإسهام في كتابة مواد تاريخية أدبية في الموسوعة العربية الشاملة، وإنجاز أعمال أدبية عدة، وهذا كله إلى جانب موهبته الشعرية، وقد صاغ رؤيته التربوية في تعليم النحو في حفل استقباله عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بدمشق عندما قال:

قواعد النحو تجريدٌ، وليس لمن مازال غضاً على التجريد إمكانُ
هذي الطفولةَ لا تقوى على عَسِر لم يستطع حمله إنسٌ ولا جانُ
غذِّ الصغير بما يلتذّ مطعمُهُ لا بالدواء مريراً وهو غصّانُ

ويبدي وجهة نظره في تبيان الطعام اللذيذ المستحب في مرحلة الطفولة في ميدان تعليم اللغة العربية، فإذا هو تحفيظ الناشئة الصغار مجموعة من عيون الشعر والأمثال والحديث النبوي الشريف، على أن يتوّج ذلك كله بحفظ آيات من القرآن الكريم.

وقد يتساءل بعضهم كيف يدعو فقيدنا إلى تحفيظ ناشئتنا الصغار في المراحل الأولى من تعليمهم عيون الشعر والأمثال والحديث النبوي الشريف على أن يتوّج الحفظ بالقرآن الكريم؟

والواقع أن نظرته تلك هي ما نعتمده نحن التربويين، فمن الأهمية بمكان أن يتمرس الناشئة الصغار بالقوالب اللغوية السليمة يحفظونها، ويرددونها حتى تستقيم ألسنتهم في سلامة نطقها، ومع نموهم العقلي في المرحلة التالية يتعلمون القواعد النحوية المجردة، ويفهمون وظائف الكلمات في الجمل، ودلالاتها اللغوية والمجازية، إذ تصبح عقولهم الغضة مهيّأة لتقبل التجريد وتمثل القواعد النحوية مصطلحاً وتطبيقاً.

لم يكن فقيدنا الكبير الأستاذ الدكتور محمد شفيق البيطار محدود السمعة العلمية، وإنما كانت قد سبقته إلى أوساط المجمع، ولم ألقه قبل انتخابه عضواً عاملاً في المجمع، وإنما كانت كفايته العلمية قد تبدت في تقويمه للبحوث العلمية التي كانت تقدم إلى مجلة المجمع بغية النشر فيها، وكنت رئيساً للجنتها، فقد كان رحمه الله متميزاً في تقاريره التقويمية العلمية منهجاً ولغةً ورأياً موضوعياً، وقد أعجبت أيما إعجاب بكفايته آنذاك، وكان الإعجاب عن بعد.

وعندما جرى ترشيحه لأن يكون عضواً عاملاً في المجمع، وعززت التزكية هذا الترشيح، وجرى الاطلاع على سيرة حياته العلمية الحافلة بالإنجازات كان انتخابه عضواً عاملاً بالإجماع من أعضاء المجمع كافة تقديراً لمكانته الجدير بها علماً وخلقاً.

ولما التحق رحمه الله بالمجمع كان الانطباع الذي ترسخ في الذهن عنه في محلّه، فلقد تعرفته عن قرب، فألفيت في شخصه العالم الكفي ذا الذاكرة المتقدة، والأسلوب الأدبي الرفيع، والشاعر المرهف، وتقديم الشواهد والأمثلة في أمكنتها المناسبة، وطالما كانت آراؤه الصائبة هي الفيصل في القضايا المطروحة في الأعم الأغلب، وكانت مناقشاته وتعقيباته في مجلس المجمع متسمة بالجرأة في إبداء الرأي بكل ثقة، وكنت أختلف معه في بعض رؤاه، ولم يكن اختلاف الرأي يفسد للود قضية.

لقد عملنا معاً في لجان المخطوطات والنشاط الثقافي والمعجم التاريخي للغة العربية في المجمع، إذ كنا أعضاء فيها، ولكم كان إعجابي كبيراً بمتابعته الحثيثة في قضايا التراث العربي ودقته في تعرف ما حقّق منه، وما نشر في ميادين التحقيق المختلفة فقهاً وتاريخاً وأدباً ونحواً وعلماً...الخ، وكانت له آراؤه الموضوعية في الحكم على المخطوطات المحققة والمنشورة على الصعيدين العربي والعالمي.

وثمة سجية من سجاياه المتعددة التي اتصف بها ألا وهي النزعة الإنسانية، فقد كان أريحياً بكل ما تحمله كلمة الأريحية من معاني الشهامة والارتياح للعطاء، فعند القيام بأعمال الخير كان من أوائل من يسهم فيها رحمه الله، مما يدل على الأنموذج الأخلاقي الرفيع المستوى أريحية ونبلاً وسخاءً، ولم يكن سخاؤه تمظهراً وادعاءً، وإنما جبلة وأصالة، ورحم الله الحكيم القائل: إن الحب يحتاج إلى نفوس عظيمة، كما يحتاج إلى الوعي، ورحم الله الشاعر المهجري إيليا أبو ماضي عندما قال:

لا تطلـــبنّ محبـــةٍ مـــن جاهـــل المـــرء لـــيس يحـــب حتـــى يفهمـــا

أيها الحفل الكريم: إن مجمعنا عبر مسيرته التي تجاوزت القرن الكامل بست سنوات وقف أعضاؤه أنفسهم لخدمة هويتهم وثقافتهم ووطنهم الروحي، ولغة قرآنهم الكريم، وما اللغة إلا هوية وانتماء، ومستودع لثقافة أمتنا العربية ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وهي وطننا الروحي أيضاً، وهي الرابطة الأساسية والمقوّم الأساسي من أركان قوميتنا العربية إلى جانب التاريخ والآمال والآلام المشتركة ووحدة المصير، وهي التي بقيت وظلت مستمرة من بين هذه المكونات في عصرنا الحاضر وستظل مستقبلاً.

وصدق رب العالمين في قوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾، ورحم الله أستاذنا المجمعي عبد الكريم اليافي في قوله:

لـــم يبـــق شـــيء بأيـــدينا ســـوى لغـــة نصـــونها بســـواد القلـــب والهـــدب

وهي كما هو معروف لديكم لغة عالمية بين اللغات الست المعتمدة في الأمم المتحدة، وتجيء في المرتبة الرابعة بين اللغات الأكثر شيوعاً واستعمالاً على الصعيد العالمي، وستكون لها السيادة في المستقبل بمشيئة الله كما أشار إلى ذلك عدد من الباحثين الأجانب.

وبقي المجمع مستمراً في أدائه عبر السنين التي مرّ بها وضعاً للمصطلحات العربية مقابل المصطلحات الأجنبية، وتحقيقاً للمخطوطات في تراثنا العربي، وتأليفاً للكتب، ونشراً للبحوث في مجلته، وإلقاء المحاضرات، وعقداً للندوات والمؤتمرات...الخ. حرصاً منه على سلامة لغتنا العربية وإغنائها والتمكين لها، والنأي عن استعمال اللهجات العامية والهجين اللغوي والعربيزي والفرانكو آراب....الخ.

ويؤكد مجمع اللغة العربية في بيانه الذي أصدره بمناسبة المرحلة الجديدة في تاريخ سورية بعد الثامن من كانون الأول التمسك بوحدة سورية أرضاً وشعباً في ظل دولة المواطنة والقانون التي تضمن لكل مواطنيها الأمن والاستقرار والعدالة والعيش الكريم، وتحافظ على تنوعها وإرثها الحضاري العريق، وتعيد إليها ألقها، ويستلزم ذلك تكاتف أبنائها جميعاً محبة وتسامحاً وإخلاصاً في العمل وتفانياً في أدائه، واستئصالاً لضروب الفساد، وتحلياً بالصمود أمام المغريات، وصدق رسول الله ^ في حديثه عندما أشار إلى أن مفهوم «الجهاد الأكبر هو مجاهدة النفس ومغالبة الهوى»، وهذا ما عبّر عنه حكيم المعرة في قوله:

جهـــل الديانـــة مـــن إذا عرضـــت لـــه أطماعـــه لـــم يلـــف بالمتماســـك

وما أبانه أيضاً الشاعر المهجري أبو ماضي في تعريفه للتعبد على أنه:

«ضبط الهوى في عالم فيه الغواية جمة الأسباب»

وما كان الهوى إذا ما سيطر على المرء واستبد به إلا هواناً له على حد تعبير الشاعر:

إن الهـــوانَ هـــو الهـــوى قلـــب اســـمه فـــإذا هويـــت فقـــد لقيـــت هوانـــا

وفي نهاية كلمتي لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى معالي السيد وزير التعليم العالي والبحث العلمي الأستاذ الدكتور عبد المنعم عبد الحافظ على رعايته الكريمة لهذا الحفل،

وإلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة دمشق ممثلة بالأستاذة الدكتورة منى طعمة رئيسة قسم اللغة العربية على جهودها الطيبة مع المجمع لإقامة هذا الحفل.

رحم الله العالم المجمعي القدير ذا المكانة العلمية الرفيعة، والسيرة الذاتية العطرة، وأدعو الله أن يسكنه فسيح جناته، وأن يلهم أهله وزملاءه وطلابه وعارفيه الصبر والسلوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.